

الجانب الأخلاقي
في فكر الإمام الخميني

تأليف
الدكتور جودت القزويني

المركز الإسلامي - لندن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

<العالم يقوم على أساس تربية الإنسان>
<الإنسان عصارة كل الموجودات>
<وحصيلة جميع العالم>
<والأنبياء بعثوا لنقل هذه العصارة>
<من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل>
<لكي يصبح الإنسان موجوداً إلهياً>
<يحمل كل صفات الله تعالى>
<وهو مظهر لنور رب العالمين>
الإمام الخميني

تركزت هذه الدراسة على تحليل منهج التربية لدى الإمام الخميني (1320- 1909 هـ / 1902 - 1989م) من خلال محاضراته التي ألقاها بالنجف على طلبة العلوم الدينية، والتي طبعت سنة 1396 هـ / 1976م باسم (الجهاد الأكبر).

وكذلك كلماته التوجيهية بعد انتصار الثورة الإسلامية سنة 1399هـ / 1979م التي ألقاها على جموع الوافدين المتقاطرين لزيارته في محل إقامته بطهران.

وقد نشرت هذه الرسالة في سنة 1403هـ / 1983م في مجلة رسالتنا (في العدد المزدوج، الرابع والخامس، شعبان 1403هـ /

حزيران - تموز 1983م, الصادر عن مؤسسة أهل البيت بالزينية - دمشق.

ثم أفردت مستقلة في العام نفسه وطبعت في بيروت. كما نشرت أيضاً على شكل حلقات متسلسلة في صحيفة <لواء الصدر> الصادرة في طهران أوائل سنة 1404هـ/ 1984م.

ولمّا أصبحت النسخ المطبوعة نادرة لا عين لها ولا أثر رجعت إلى النص لإعادة نشره, فلم أزد عليه شيئاً, وتركته كما كتب أول مرة دون إضافات كلي أضع القارئ في أجواء تلك المرحلة الصاخبة بالتحدي والثورة.

من خلال محاضرات <الجهاد الأكبر> وغيرها وضع الإمام منهجاً أخلاقياً عملياً (الأخلاق العملية) دون أن يُنظر لوضع نظرية في علم الأخلاق. لذلك فقد انتقل من المفاهيم الإسلامية والمأثورات, وسيرة السلف, إلى الدعوة لتطبيق مردوداتها التربوية التي هي الهدف الذي ينشده من خلال منهجه الأخلاقي.

تلخيص مفردات البحث

ظهر من ثنايا البحث ما يلي:

1- البحث لا يتناول سيرة الإمام الخميني ومجريات حياته, بل اقتصر على ذكر بعض المنقولات التي شهدت بعضها عند وفاة ولده السيد مصطفى الخميني بالنجف. بما يعطي الفكرة كيف تعامل الإمام مع الحدث في تلك المرحلة الزمنية المهددة للثورة الإسلامية الإيرانية.

2- سهولة تعامل الإمام الخميني مع المفردات. فالمفاهيم التي طرحها هي مفاهيم تربوية لا تحتاج إلى خلق مصطلحات علمية, أو الضياع وسط الاختلافات النظرية, والمساجلات دون بلوغ نتيجة.

3- انصب منهاجه التربوي على الهدفية في خلق (الإنسان), وليس خلق (العالم), وبعبارة أخرى خلق (الإنسان العالم) فالأخلاق عنده

مقدمة لتحصيل العلوم , والعلم دون اقترانه
بالضوابط الخلقية هو علم هدام سواء كان
منصباً في الإطار الديني, أو اللاديني.
وقد نقل الإمام أن بعض أساتذته نبه طلابه
بأنهم يستطيعون أن يقطعوا أشواط الدراسة
ليصبحوا علماء للدين, إلا أن هذا الأستاذ
أضاف: ينبغي أن تدركوا الفرق بين العالم
المهذب, والعالم غير المهذب.
كما قيل: إن من السهل أن تصبح عالماً,
ولكن من الصعب أن تصبح إنساناً.
ولكن هذه المقولة يمكن أن تكون أكثر
دقة عندما توجه على النحو التالي:
ينبغي أن يقال, من الصعب أن تصبح عالماً
ومن المستحيل أن تصبح إنساناً.
وبمقدار ما في هذه العبارة من جمالية
في التشكيل الذي يرقى بذاته إلى حد
المفاجأة, فإن ما تتضمنه من حقائق واقعية
هي في صميم مشكلة الحكم في العالم.
فالعلماء المتخصصون الذين يسيطرون على
دفة السلطان هم في جميع اختصاصاتهم
يحتاجون إلى قانون ضبط أخلاقي لكي لا يستخدم
العلم في غير مجال الفضيلة المخصص بالشؤون
الدينية, وقد تيقن الإمام من السعي لإيجاده:
<إذا فسد العالم فسد العالم> وإن كان قد
أظهر تفسير (العالم) بهذه المقولة
بالمتمخصص بالشؤون الدينية, الذي أراد أن
يكون قدوة لغيره, قيادياً متصدراً السلطة
والحكم على وفق نظريته في (الحكومة
الإسلامية).

4- ارتكز بناء الإنسان في نظر الإمام على
إصلاح النخبة أولاً, وتشكيل قاعدة
(الأمّة), ثانياً, لخلق إنسان الثورة؛ الثورة
على الذات, والثورة على الواقع المنحرف,
وهو النموذج الذي أراد الإمام الخميني
صياغته طبقاً لنظريته في السلطة والحكم.

5- ربط الإمام بين قوة القيادة (علماء الدين) وتأييد جماهير الأمة لهم. والتوافق الذي ينشأ بينهما يعتمد على التطابق الفكري والعلمي الذي يمكن للقيادة العلماء من توجيه الجماهير لصالحهم فيما إذا استطاعوا تأديفة الفروض السياسية والاجتماعية الموكلة لهم بما يحقق للمجتمع ازدهاره ونموه.

6- ركّز الإمام الخميني على تربية العلماء على وفق منهاج أخلاقي يقود إلى الرياضة الروحية،

والمحاسبة الذاتية لتنزيه النفس عن التصرفات. وهو في نظره ينحصر بالربط - على غرار النظرة

الإسلامية - بين الحياة (الدنيا) التي يعيشها الإنسان، وبين الحياة الأخرى التي وعد بها بعد انتقاله عن الحياة الدنيا، طبقاً لهذه <الثلاثية>:

أ - التحذير عن الإعراض <حب الدنيا> .
ب - التذكير بالآخرة .

ج - الربط بين الدنيا والآخرة بقنطرة (الدعاء) الموصل إلى التعادلية الدينية والديوية. (والدعاء رمز من رموز الاتصال الروحي، وعدم الغفلة أو الاستغراق في ضدية التجانس المعرفي).

وهذه مرحلة من مراحل الإعداد تتضمن أخطاراً أخرى تتعلق بالآثرة النفسية التي مصدرها أنانية الذات التي عدها الإمام نوعاً من أنواع البخل الذي يحرص عليه صاحبه لتحصيل فرصته الديوية، وتركيز موقعه الاجتماعي، وهي إحدى صور الانطوائية المندرجة بمحو العطاء، ونفاذه، وقلة الآثرة وطغيانها. وقد عالج الإمام هذا الخطر الأخلاقي بالسعي لمعرفة الذات وفهمها، ومحاولة إنكارها مقابل تفضيل المصالح

العامّة الكبرى، وإحلالها محلها، خصوصاً ما يستجد من قضايا تتعلق بالاختلاف في الرأي الذي يقود إلى الاختلاف في سلوك الجماعات. فقد انطلق الإمام الخميني من مقدمات منطقية، سهلة التناول لقمع مثل هذه الانقسامات لعدم وجود مبرر لأصحاب المدرسة الإلهية بالاختلاف بينهم، باعتبارهم أصحاب هدف مشترك، هو هدف (التوحيد)، وساق مثلاً تقريباً فيما إذا اجتمع جميع الأنبياء (الذين بعثوا لهداية البشرية) في مكان واحد، فهل سيختلف بعضهم عن الآخر، وهم يعبرون في أهدافهم عن مبدأ واحد؛ هو مبدأ التوحيد؟!

إن الإمام الخميني حاول الانتقال من الوعي الأخلاقي إلى وضع منظومة أخلاقية تستند إلى ضوابط قانونية تامة، تعد جزءاً من منظومة شاملة من منظومة شاملة لجميع منافذ الحياة في جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وليست منفصلة عنها. وقد حقق الإمام هدفه في خلق إنسان الثورة الذي صاغه وارتضاه طبقاً لمنهاجه الأخلاقي العلمي. بقيت هذه القناديل - التي أسرجها بيده - مشعة في سماء الفضيلة مدى الآباد.

إن الشذى لا ينم إلا عن عبير الورد،
والعطر لا يعبر إلا عن نفسه.

وهكذا كان الإمام الخميني.
6 جمادى الثانية 1423 هـ 15 آب 2002 م. جودت
القزويني

هذه الصفحات تشمل دراسة محورية حول (الجهاد الأكبر) , ومحاضرات الإمام الخميني التي ألقاها على طلبة العلوم الدينية قبل قيام الثورة الإسلامية في إيران - بضميمة بعض المفاهيم المطروحة بعد نجاح الثورة الإسلامية. ومادة البحث لا تمكن من الاستغراق في بث نظرية أخلاقية متميزة للإمام الخميني بقدر ما تكشفه من أبعاد التربية الخلقية في أفكاره وكلماته. لذلك كان عنوان البحث (الجانب الأخلاقي) أوسع مدلولات من الاقتصار على النظرية والمنهج؛ عندئذٍ لم في أطرافه دراسة , آمل أن تكون مستوعبةً حول محاضرات (الجهاد الأكبر).

كان المؤمل أن يشمل هذا البحث دراسة أفكار الإمام الخميني (مفجر ثورة المستضعفين , ومؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران) في كتاباته المتعددة , ونظراً لبقاء

بعض مؤلفاته كما قد كتبت باللغة الفارسية؛ كان من المتعذر الاطلاع عليها دون نقلها إلى لغة أخرى. يضاف إلى ذلك؛ إن مؤلفاته التربوية الأخلاقية لا يمكن الإفلات منها بوقت قصير دون دراستها دراسة إمعان وتدبر لما تشتمل عليه من لغة خاصة؛ هي في (العرفان) و (التصوف) بالصميم.

لذلك اقتصرنا هذه الدراسة على محاضرات الإمام التي ألقاها على بعض طلبة علوم الحوزة النجفية - أيام إقامته فيها - وهي تمثل مرحلة ما بعد انتصار الثورة (1).

ومن خلال هاتين المرحلتين - وبعد قراءة أفكار الإمام وتوجيهاته - تتجلى مفردات تربوية مشتركة (ثابتة) في تفكير الإمام. وعنصر (الثبات) عنده ناشئ من ثبات القيم العليا التي جاء بها الإسلام. فالأخلاق في نظرة مرتبطة بالدين، ومتضمنة معرفة وعملاً. والمبادئ الأخلاقية ليست مجرد وعظية نظرية بل هي مبادئ إيجابية محكمة بنيت على أساس الواقع، تستهدف تكوين وازع داخلي لمقاومة دافع الشر، وهي تقوم على أساس الالتزام، والتقوى (2).

إن ارتباط الأخلاق بالدين يعني - مادام الدين ثابتاً - ثباتها وبقاءها، خلافاً

(1) يقول شهيد المحراب آية الله صدوقي: إذا راجعنا كتاب <كشف الأسرار> نجد أن الكلمات التي تكلم بها الإمام قبل أربعين عاماً هي نفسها التي يتكلم بها الآن.

وكان لعالم جليل هو المرحوم - يزدي - دفتر مذكرات يدون فيه كلمات العلماء الذين صادف أن ألتفاهم، وطلب منهم أن يكتبوا فيه، وطلب منهم أن يكتبوا فيه، وفي هذا دفتر كلمات لأكثر من شخص، من ضمنها كلمة كتبها الإمام قبل حوالي أربعين عاماً، وهي نفسها التي كان يرددها عند صدامه مع الشاه وحكومته، الأمر الذي يعرفنا أن بداية صراع الإمام ضد حكومة الطاغوت كانت منذ أربعين عاماً.

(الإمام قدوة، صحيفة لواء الصدر، 12 شعبان 1403 هـ).

(2) يقارن: الجندي، أنور، مقدمات المناهج: (القاهرة،

1977م) ص 111.

للتقاليد التي تتبدل تبعاً لتغيير الزمان
والمكان لأن الأخلاق جزء من الدين الموحى به ،
وهي بذلك شطر كيان رباني المصدر ، إنساني
الهدف.

أما التقاليد فهي وسائل عارضة من صنع
المجتمعات لا من صنع الله ، تختلف وتتغير
باختلاف الزمن والبيئة(1).

* * *

أما دراسة جهود الإمام الخميني في
جانبه (الأخلاقي) – إن صح التعبير –
فتنصب على نقطتين:

النقطة الأولى: دراسة السيرة

الشخصية للإمام الخميني نفسه .

النقطة الثانية: دراسة مدى نجاحه

في (إعداد) الكادر القيادي للأمة ،
وتركيته على تربية علماء الدين بما
يتناسب وعملهم التغييري في المجتمع ،
وبالتالي يعني تربية الأمة تربية
إسلامية صحيحة .

(1) مقدمات المناهج: ص 108 .

الإمام الخميني: سيرة أخلاقية

لا يمكن القول في مثل هذه العجالة للإمام بالسيرة الشخصية للإمام الخميني، وإحصاء حياته، وما كتب عنه، إلا أن من خلال بعض المواقف التي سجلها من رفاقه، أو كان شاهداً معه على واقعة معينة - يمكن أن نعطي التصور القيادي لهذه الشخصية العالمية الكبيرة.

إن الإمام الخميني خلق ليكون قائداً، وإن سيرة حياته وسلوكه تدلان على ذلك، ولما كان الإنسان موقفاً؛ فإن لمواقف الإمام الخميني في أحلك الأوقات التي مرت عليه - بعداً هادفاً، وموجهاً، لا يمكن أن يفسر باللاهدفية. لقد كانت طاقته في تحمل المواقف، وتجاوزها أكبر من طاقة أي إنسان يقف متفجعاً فضلاً عن أن يغوص داخلها. وناهيك بإنسان قارع عالماً شريراً بكل ما يملك من خبرة، ولم ينثن في نزاله رغم الأعوام الثمانين التي لا تزيده إلا عزيمة، وقوة، وثباتاً.

من هنا كان لابد من لمحة تمهيدية قبل النظر في فكر الإمام الأخلاقي إلى بعض المواقف التي سجلها بسيرته، وكتبها بصبره وجرأته.

مراقبة الذات

بفضل ما يمتاز به الإمام الخميني من ضوابط نفسية، ومراقبة ذاتية يفرضها على تصرفاته وأعماله بعدما اطر شؤون حياته الاجتماعية، والسياسية، بإطار نظام ملتزم، وأسلوب خاص (1) فإن هذه الضوابط انعكست بفضل تربيته على طلابه، فاستطاع أن يوجد الطبقة الممتازة، ويدفعها - بعد فسح المجال

(1) الشاهرودي: لمحات من حياة الإمام الخميني، (طهران 1402هـ / 1982م) ص 16.

لتكاملها - إلى تربية الأمة إسلامياً, وعلى معايير خلقية.

كانت محاضرات الإمام العرفانية - منذ سني نشأته الأولى - مقتصرة على تلاميذ محدودين, بالرغم من تعميمها بعد ذلك, يرى فيهم تقدماً, وكفاءةً لاستيعاب كلماته.

يقول بعض الدارسين: بعد مدة من تدريس الفلسفة بدأ بتدريس العرفان سرّاً لنخبة خالصة من الطلاب المعتمدين لديه, ثم عقد جلسة أسبوعية ليدرس فيها علم الخلاق.

ورغم أن حكومة رضا بهلوي كانت تعارض بشدة إقامة مثل هذه الجلسات, وتمنعها إلا أن هذا المنع والخطر أديا إلى تقوية الجلسة, واشتهارها, واشتدت علاقة الطلاب والفضلاء, وعمامة الناس بهذه الجلسة. ففي حين كانت الجلسة تقتصر في بداية أمرها على عدد محدود من طلاب العلوم الدينية غير أنها توسعت لتستوعب مئات من العلماء والموظفين, والتجار, والعمال الذين كانوا يأتون عليها من المدينة (قم) نفسها, ومن العاصمة طهران, والتي كان مقرها في المدرسة الفيضية, وهي أكبر المدارس الدينية في قم. بهذا الإقبال الشديد اضطر الإمام إلى إقامتها مرتين في أسبوعياً - يوماً الخميس والجمعة - حتى تستطيع كل طبقات الشعب الاستفادة من توجيهاته وإرشاداته(1).

ومع التوجه العظيم لهذه المحاضرات التربوية فإن الإمام الخميني لم يبرح مراقباً نفسه حتى في حالات الطاعة المنقطعة لله, فبعد إقبال طلاب العلم على محاضراته, وتزايدهم عطّل الإمام درسه يوماً ما خشية أن يأخذه العجب بكثرة الحاضرين واهتمامهم بمحاضراته, مما يشير إلى الرقابة الذاتية

(1) محمد جواد المهري: جوانب من أفكار الإمام الخميني (طهران 1402هـ / 1982م ص21).

التي يتحلى بها الإمام الخميني، ويمارسها بحذر، ودقة.

يقول شهيد الحراب الثالث آية الله صدوقي: كنا نجد أن أسلوب حديث الإمام نموذج خاص من أخلاق الأنبياء والأولياء، والأئمة الطاهرين، وبعد مدة زاد الحاضرون في حلقة درسه بشكل لا يطاق، واحمل انه قد أحسّ بعدم إمكانية أن يكون الدرس خالصاً لوجه الله بالشكل المطلوب، فعطلّ الدرس(1).

كما كان الإمام الخميني حريصاً على تأكيد الالتزام بالمحاضرات ليكون الدافع متعدياً مسألة حضور حلقات درس إلى مسألة تربية ذاتية متينة. يقول آية الله ناصري (حاكم شرع يزد):

أتذكر مرة ي احد الدروس قال لنا الإمام إذا كان هدفكم من المجيء هو الدراسة، فعليكم الحضور في الوقت المعين. أما كان حضوركم لمجرد الحصول على ثواب الوجود في المسجد فهناك أماكن كثيرة في المسجد يمكنكم الجلوس فيها(2).

2- الصبر على المكاره

ومن سلوك الإمام في تهذيب الأمة صبره الشديد على المكاره، ومقدرته على تحمل الصعاب، والشواهد على ذلك كثيرة جداً <بعد الثورة، وقبل الثورة> لكني سأروي واحدة منها:

قصت مدينة النجف الأشرف من محل إقامتي ببغداد لزيارة مكتباتها القديمة، فاستدعى سفري أن تطول الزيارة بعض الوقت، وفي يوم من الأيام، وبالتحديد يوم التاسع من شهر ذي

(1) الإمام قدوة: آية الله صدوقي، ترجمة: علي العلوي، صحيفة لواء الصدر 27 رجب 1403هـ / 1983م.

(2) الإمام قدوة: آية الله صدوقي، ترجمة: علي العلوي، صحيفة لواء الصدر 19 شعبان 1403هـ / 1983م

القعدة سنة 1367 هـ/1977م ارتفع من مئذنة المدينة نداء مُرَجَّع ينبي بوفاة السيد مصطفى نجل الإمام الخميني.

كان الخبر مفاجأة لأن السيد تكن متقدمة به السن, كما لم يكن مصاباً بمرض يخشى منه عليه, لكنها إرادة الله, على كل حال.

حُدّد موعد تشييعه صباح اليوم التالي, فخرجت بصحبة عالم جليل (1) مع من خرج من المشيعين, وكان تشييعاً مهيباً, يشيع الصمت فيه والجلال, حيث خرج كل طلاب العلوم الدينية يتقدمهم أساطين أهل العلم والاجتهاد كان من بينهم الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر.

ولم يكن الإمام الخميني من بين المشيعين, بل كان قد مشى خطوات قليلة في بداية الأمر, ثم انصرف. فعللنا ذلك لضعفه عن مواصلة السير, وإلى تقدمه في السن, واعتقدنا بأنه سينتظر النعش في الصحن الحيدري حيث يقيم الصلاة عليه, لكننا فوجئنا بغيابه حال دخولنا باحة الحضرة الحيدرية.

شاع في ذلك - الذي كنا نحن فيه - أن السيد مصطفى مات مسموماً بتدبير من (الساقاك) جهاز مخبرات الشاه وعملية اغتياله بتقديرهم كانت تعني القضاء على أبيه بلا إثارة لأي حفيظة. فالسيد مصطفى ولده الأكبر, ويرتبط معه فضلاً عن رابطة النسبية, بروابط عديدة أخرى, وسيؤدي فقدته بالنتيجة إلى حزن الإمام وأمه, وربما فقدانه أيضاً.

إلا أن الإمام الخميني استطاع أن يطلق هذا الحدث من أسار فرديته, ويحوّله إلى دائرة المعارضة, ويكشف من خلاله الأبعاد

(1) هو الخطيب الكبير السيد جواد شبر, أعتقل بالعراق سنة 1402 هـ/1982م. ولم يعرف مصيره, وهو من مواليد سنة 1332 هـ/1914م فيكون عمره عند اعتقاله يقارب (70) عاماً.

التي تقوم بها الحكومة الإيرانية الشاهنشاهية في قتل أبناء الشعب وقمعهم . وهو بإرادته الصلبة تجاه اغتيال ولده - سجل موقفاً بتناسب شعوره , وتساويه مع طبقات الشعب عامة , وعدم إفاضتها على قريب أو بعيد إلا بالسواء .

هكذا كان الخميني

ففي اليوم الذي دفن فيه السيد مصطفى , (كان مدفنه في غرفة تقع أسفل المنارة اليمنى من منائر الحضرة الحيدرية) , وبعد أن جاء المساء ؛ زار الإمام الخميني - بعد أن أدى كعادته صلاته في مسجده - غرفته وهي تحتوي على قبور مجموعة من العلماء , وقرا الفاتحة , وما أن هم بالانصراف حتى رأى من كان معه في حالة تأثر وبكاء ؛ فالتفت إليهم مشيراً أنه قرأ سورة الفاتحة على روح عالم رباني - سماه لهم - وطلب منهم أن يقرؤوا الفاتحة له . ثم انصرف .

وفي تلك الأيام حدثني السيد جواد شبر بهذه القصة ؛ قال : في يوم وفاة السيد مصطفى ذهبت لتعزية الإمام الخميني , وما أن دخلت بيته حتى رأيت مجلسه مكتظاً بأماثل المجتهدين - ممن كان بمدينة النجف - وغيرهم من الفضلاء , وكان مجلساً تلوح على سماته سحائب الحزن ؛ عندها انبرى أحد (الخطباء) بقراءة تعزية قرننها بذكرى سيد الشهداء الإمام الحسين* ومصابه في ولده علي الأكبر , وكانت تعزية مؤثرة , فما كان من الحاضرين إلا أن ينفعلوا , ويذرفوا الدمع على هذه الذكرى المقتترنة بالحادث الذي أصاب الإمام الخميني بولده الأكبر مصطفى .

يقول السيد الجواد : كان السيد الخميني جالساً في مكانه من المجلس , رافعاً رأسه , قابضاً على لحيته لم يبد عليه أي ضعف أو تراخ , كما أن عينيه لم يطرف لهما جفن .

وحدثني السيد الجواد أيضاً: أن الإمام الخميني بعدما سمع خبر وفاة ولده مصطفى توجه لزيارة عائلته, وعندما دخل الدار استقبله من كان فيها بالبكاء والنحيب. فقال لهم الإمام: كان السيد مصطفى وديعة الله عندنا, فاستردها.

تكررت هذه المواقف, ويسجلها كل من شهدها؛ يقول حجة الإسلام أنصاري كرمانى: لا نستغرب كل ذلك من الإمام, فهو الذي فقد ابناً شاباً مثل آية الله الحاج مصطفى, هذا الشهيد الذي كتب ألف صفحة في التفسير, وسبق أكثر أساتذته في مجال المسائل الفقهية, ولم يترك إحياء الليالي بالعبادة والتهجد - ولم يتزلزل الإمام لهذه الفاجعة, بل بادر إلى إلقاء محاضراته منذ الصباح الباكر لليوم التالي لشهادة ابنه, وإنه لم يخرج في تشييع جنازة ابنه إلا لكونه أداء لعمل من الأعمال المستحبة, فخرج وكأنه لم يخرج في تشييع جنازة ابناً عزيزاً عليه.

كما يحدث كرمانى أنصاري بهذه الحكاية أيضاً فيقول: طلب الإمام الخميني من أحد مقربيه أن يذهب إلى عالم من علماء الدين لتفقد أحواله, (وذلك بتمام الساعة التاسعة من صباح يوم عينه).

يقول الشخص المكلف: لكي لا أنسى هذا الموعد, هممت لتدوينه. وفي صباح اليوم التالي (وعند الساعة التاسعة) مررت بالقرب من بيت الإمام, والناس مجتمعة حوله, فدهشت, وسالت نفسي: ما الذي حدث؟

كان قد ذاع بشكل واسع, تلك الأيام, خبر محاولة اغتيال الإمام بطلب من النظام.

شعرت بشعور غريب, وراودني قلق شديد. اقتربت من الجمع, وما إن سألتهم, حتى علمت باستشهاد السيد مصطفى.

تجمع الطلبة لتقديم التعازي للإمام الخميني، وهم يتباكون على هذا المصاب، ولشدة تأثري نسيت موعد الساعة (التاسعة) فدخلت غرفة الإمام، ونظرت إلى وجهه المنير، وازددت بكاء.

فسألني الإمام - وكان لم تكن هناك حادثة تخصه - : <ماذا جرى بالنسبة لتلك المسألة؟> لم أفهم قصد الإمام، كنت مصاباً بالدوار. قلت: أي مسألة؟

قال: مسألة أمس!

استجمعت أفكارى، حاولت أن أتذكر ما يعنيه الإمام، حتى تذكرت أنه يقصد مسألة الموعد، ومقابلة عالم الدين، وهو في هذا الموقف؛ حيث (الجنازة) على الأرض، وأصوات البكاء مرتفعة من جميع الأطراف. بادرنى الإمام بالقول: اذهب، واعتذر نيابة عني.

بعدها عاد الإمام إلى تدريسه، وبحوثه، وعاد إلى حياته الاعتيادية (1).

من هنا يمثل الإمام الخميني في سلوكه الأخلاقي خطأً أصيلاً لم يكن منفصلاً عن البيان الإسلامي الممتد في أعماق التاريخ، فالمفردات الأخلاقية تمتاز بالثبات، وإن تغيّرت الشروط الموضوعية، وهكذا كانت حياة الإمام الخميني قبل الثورة وبعدها صورة لم تتغير، ولم يعرّها التبدل.

إن الشواهد الكثيرة المنبثقة في تاريخ الشخصيات الإسلامية تظهر مدى تعاطف هؤلاء مع الفكرة، وتبنيهم لها في إطار موحد. فالتجربة التي مر بها الخلفاء كانت بحسب المنظار الإسلامي تجربة رائدة نقلت المجتمع المسلم من مرحلة التفكير بهومومه الذاتية

(1) أنصاري كرمانى: لمحات من حياة الإمام الخميني، مجلة رسالة الثورة الإسلامية، الأعداد، 21، 22، 23، السنة الثانية 1403 هـ / 1983م.

إلى مرحلة المسؤولية، ومشاركة المستضعفين في همومهم؛ كما قال الإمام علي بن أبي طالب: <أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش>. يقول الشهيد السيد محمد باقر الصدر: إذا تجاوزنا تاريخ التجربة إلى واقعها المعاصر، وجدنا أن ذلك العلوي العظيم الذي قاد كفاح شعبه تحت راية الإسلام حتى نصره الله، وسقطت في يده إمبراطورية الشاه بكل خزائنها، ورجع إلى بلده رجوع الفاتحين، لم يؤثر على بيته القديم بيتاً، بل عاد إلى نفس البيت الذي نفاه الجبارون منه قبل عشرين عاماً، ليقدم الدليل على أن الإمام علياً لم يكن شخصاً معيناً قد انتهى، وإنما هو خط الإسلام الذي لا ينتهي(1).

الجهاد الأكبر

تمثل محاضرات الإمام الخميني التي ألقاها على مجموعة من طلبة الجامعة العلمية بالنجف الشرف – المنشورة تحت عنوان (الجهاد الأكبر) – تنبيهاً أخلاقياً، ومنحياً أولياً يساهم في بناء الإنسان بناء عقائدياً وأخلاقياً في آن واحد.

(1) الشهيد السيد محمد باقر الصدر: منابع القدرة في الدولة الإسلامية (طهران، لا. ت) ص22.

ولم تكن مجموعة هذه المحاضرات ترفاً عقلياً، وإنما جاءت لتعالج مسألة في الصميم، لذا اعتمدت على التجارب الحية التي خبرها الإمام الخميني، وعاشها فكراً وسلوكاً، وعلى ذلك بدت سمة المباشرة الخطابية فيها واضحة، كما استبدل بالتشعب النظري، والتفرغ المقارن الهدافية في إصلاح الذات، وتهذيبها على صرح العلافان الفخم.

وتظهر هذه المحاضرات في أولها مستويين يمثلان جيلين؛ جيلاً ماضياً، وآخر آتياً. بعبارة ثانية يظهر مستويان ممثلان بالحكماء، وبطالبي الحكمة، ولما كان الإمام الخميني شيخاً وأباً؛ كان لزاماً أن يكون <الحكيم> لطالبي الحكمة، فهو يقول في أول كلام له مخاطباً تلامذته، ومحاسباً إياهم على ما تقدموا به من خطوات في مجال الأخلاق، والسمو بالنفس إلى معارج القدس:

<انقضت سنة من عمرنا، أنتم - الشباب - تسرون نحو الهرم والشيخوخة ونحن - الشيوخ - نسير نحو الموت.

أنتم تعرفون الرصيد العلمي الذي حصلت عليه، أما في المجال الأخلاقي وتحصيل الآداب الشرعية، وتزكية النفس وتهذيبها، فماذا فعلتم؟ وأي خطوة إيجابية خطوتم؟! هل كنتم بصدد تهذيب أنفسكم وإصلاحها؟

وهل وضعتم خطة في هذا المجال، حاولتم تنفيذها؟

للأسف، أراني ملزماً أن أقول: إنكم لم تقوموا بعمل ملحوظ، ولم تقطعوا شوطاً يذكر (1).

أول ما يطالعنا أن الإمام الخميني اختار شهرين عظيمين من شهور الإسلام لإلقاء محاضراته؛ فقد ابتدأت في شهر شعبان،

(1) الإمام الخميني، الجهاد الأكبر، ترجمة: حسين كوراني، (طهران 1400 هـ / 1980م) ص 5.

واستمرت في شهر رمضان, كما يلاحظ ذلك من طبيعة هذه المحاضرات. ولم يكن هذا الاختيار عفويًا لأسباب:

الأول منهما: أن التهيؤ النفسي بفعل التوجه النظري, والعملي للعبادة يزداد في هذين الشهرين بفعل التأثير بالجو الاجتماعي. **أما الثاني:** فلأن أيام هذين الشهرين مزايا خاصة, فهي بالرغم مما تمتاز به مواقف تاريخية خالدة فإنها بطاقتها الروحية تساعد الإنسان على كسر عاداته الذاتية واستبدال التوجه الحقيقي للعبادة بها, هذه الأيام يسميها الإمام الخميني (أيام الله) وهي تسمية قرآنية (1), ويعني بها تلك الأيام التي تترك أحداثها الماضية مستمرة التأثير؛ بل متجاوزة الحاضر, ومحركة للمستقبل مما يحتم أن تكون هذه الأيام - أيام - متزامنة مع تطلعات الإنسان, وفعله الاجتماعي.

<عليكم أن تتذكروا أيام الله, لا تجعلوها معرضة للنسيان. هذه الأيام هي التي تصنع الإنسان (2).>

(1) يقول الله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } . سورة إبراهيم, الآية: 5.

(2) توجيهات الإمام الخميني إلى المسلمين (طهران 1403 هـ /1983م) ص 80 . والنص من خطاب الإمام الخميني بمناسبة الذكرى السنوية لشهداء السابع عشر من شهر يور, 5/ أيلول (سبتمبر) 1979م .

وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة تحت عنوان (مختارات من أقوال الإمام الخميني) في ثلاثة أجزاء سنة 1402 هـ/1982م بمناسبة الذكرى الثالثة لانتصار الثورة الإسلامية في إيران.

ومما يؤخذ على الكتاب حرفية ترجمته من اللغة الفارسية إلى العربية مما أطاح بالذوق اللغوي والنفسي في نقل خطاب الإمام للقارئ العربي. لذا رغم المضامين العالية التي يمكن استلهاها من نص الكتاب؛ فإن الاستعانة بالترجمة العربية تخلق تشوهاً لا يمكن تلافيه.

ولمّا كانت أيام شهر رمضان من أيام الله , فإن المؤمن الواعي - كما يصرح الإمام الخميني - لابد أن يسير إليها سيراً هادفاً , وذلك بالرياضة الروحية , والاستعدادات النفسية , لذا فإن الأيام التي تسبق شهر رمضان تكون مقدمة الاستعداد الروحي لاستقبال تجربة تغييرية فخمة , يمكن للمؤمن استيعابها على أكمل ما ينبغي له .

بقول الإمام الخميني: يجب على المؤمن الواعي أن يكون قبل حلول شهر رمضان , مجتنباً لذائد الدنيا , (وهذا الاجتناب في قيمته هو الانقطاع إلى الله سبحانه) , ومستعداً تمام الاستعداد للتزود من الأيام في شهر الصيام .>

كما أن الانقطاع إلى الله - في نظر الإمام - لا يحصل غلا بترويض النفس ترويضاً غير اعتيادي , كما يحتاج إلى بذل الجهد والاستقامة , والممارسة , وبدونه لا يكون بوسع الإنسان أن ينقطع عما سوى الله سبحانه .

وبذلك أرجع الإمام الخميني جميع الصفات الإيمانية الجليلة , وكل مستويات التقوى إلى مفهوم الانقطاع إلى الله .

<ومن يتمكن من الوصول إلى هذه المرحلة فقد بلغ قمة السعادة> (1) .

وأيام الله بما فيها من تحول , خصوصاً أيام شهر رمضان هي دعوة لضيافة الله , توفر للإنسان تجربة روحية فريدة وتمكنه من ممارسة العبادة ممارسة نظرية وسلوكية في آن واحد . <أنتم في هذا الشهر الشريف , شهر رمضان , مدعوون لضيافة الله تعالى , فإذا لم تزد معرفتكم به , فاعلموا أنكم لم تلبوا الدعوة كما ينبغي , ولم تقوموا بمستلزمات الضيافة ومقتضياتها .>

(1) الجهاد الأكبر: ص 45 .

إذا لم تستطيعوا في هذا الشهر إصلاح نفوسكم وتهذيبها ومراقبتها, ولم تتمكنوا من قطع علاقاتكم المادية بالدنيا, وسحق الأهواء النفسية البغيضة, فمن الصعب جداً أن تقدرُوا على ذلك بعد انتهاء شهر الصيام >(1)

<إن الضيف يجب أن يكون عارفاً بمقام المضيف, ومؤدباً بآداب الضيافة, وضيف الله ينبغي أن يكون عارفاً بمقام الله العظيم, ذي العزة والجلال> (2).

ينطلق الإمام الخميني من أن المبدأ الأخلاقي - هو المحور الأول, والرئيسي في عملية التغيير والتقدم الحضاري. وهو وأن كان متجزئاً نظرياً, فإنه وحدة غير منفصلة في البناء التوحيدي الذي يجمع أشتات النفس في إطار منسجم لتصل الشخصية الإنسانية من الناحية النفسية, وليتحرك المجتمع في اتجاه الإنسان المتكامل (3)

وهذا يعني أن فعل الإيمان, وفعل العمل السياسي, وفعل الإبداع كلها تنصبُّ في كائن واحد, فلم يحدث في الحضارة الإسلامية الفصل بين أجزاء النظريات المتوحدة, والتجزئية بينها, بل في الإسلام العلم متصل بالدين, والعمل مرتبط بالإيمان, والفلسفة مستوحاة من النبوة, والنبوة متصلة بالعقل, والأرض غير بعيدة عن السماء, والسماء على اتصال بالأرض, والتقدم الحضاري يسير صعوداً نحو الله. هذه الوحدانية في مفهوم الحضارة ومفهوم الجماعة يحتاج إليها عالم اليوم المتجزئ في كل شيء (4).

(1) الجهاد الأكبر: ص 49.

(2) المصدر نفسه, ص 55.

(3) الشهيد مرتضى مطهري: الرؤية الكونية التوحيدية

(طهران 1403هـ / 1983م) ص 48.

(4) مقابلة مع روجيه غارودي, مجلة الدوحة, العدد (84),

ديسمبر, 1982م.

وعلى ذلك أكد الإمام الخميني على إعادة
تربوية علماء الأمة على وفق التربية
الخلقية، وتزكية النفس لتكون <الثورة
الأخلاقية عنده شرطاً للثورة السياسية،
ومقدمة لها(1). وعندما يكون إصلاح النفس
منطلقاً لإصلاح العالم، وبذلك تتكامل النفس
البشرية في سلم الارتقاء لتخلق من صاحبها
(إنساناً).

يقول الإمام: <إن الواجب يملي عليكم أن
تبنوا أنفسكم ليصبح كل منكم - إنساناً -
سويّاً، ومتكاملاً، وأن تقفوا في وجه مخططات
أعداء الإسلام.>

<هم يريدون أن لا نرتفع إلى مستوى
الآدميين لأنهم يخافون الآدميين، وإذا وجدوا
في مكان ما آدمياً فهم يرهّبونه، لأن هذا
الآدمي تقدمي متطور، يستطيع التأثير في
الناس والمجتمع تأثيراً يهدم جميع ما بناه
العدو، ويزلزل الأرض تحت عروش الظلم
والخيانة والعمالة. لهذا فإنهم إذا وجدوا
آدمياً في وقت من الأوقات، ائتمروا به
ليقتلوه.>(2).

ويقول: <من أراد أن يربي مجتمعا، فعليه
أن يبدأ بتربية نفسه، ومن أراد أن يصلح
محلاً فعليه أن يصلح نفسه أولاً، فمن لم يصلح
نفسه لا يستطيع أن يصلح الآخرين.>(3).

(1) تراجع مقدمة الدكتور حسن حنفي على (الجهاد الأكبر)
المطبوع بالقاهرة، 1980م. وكذلك مجلة (دراسات وبحوث)
التي تصدرها جماعة العلماء المجاهدين في العراق، العدد
السادس، السنة الثانية، ربيع الثاني، 1403هـ/1983م ص9.
ففيها النص الكامل لمقدمة الدكتور حنفي.
(2) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية (بيروت، لا. ت) ص
22.

(3) من حديث الإمام الخميني في (28 شوال سنة 1399 هـ)
وينظر بهذا الصدد: حسين محمد علي [تج] الإنسان محور
التغيير (طهران 1402 هـ / 1982م) ص 31.

وعلى ذلك تكون مراقبة النفس ومحاسبتها ,
مدخلاً للسيطرة على السلوك العام , وإخضاعاً
للقانون الأخلاقي:

آمل أن تحرسوا أنفسكم مثل حراستكم
للإسلام , لا تدعوا أنفسكم الأمانة تسيطر
عليكم , اجعلوا نفوسكم خاضعة للإسلام . اعملوا
على وفق ما أراده الله منكم >(1).

كما أن إصلاح النفس يقترن اقتراناً
تزامني مع مقدار الوعي في طلب العلم ,
فبمقدار كسب العلم والمعاشة معه تزداد
قابلية كبح النفس , وتربيتها على وفق معيار
علمي صحيح , فتكون المحصلة بين تهذيب
النفس؛ واكتساب العلوم متساوية النسبة .
أما إذا وجد العلم مفترقاً عن تهذيب النفس ,
والتحلي بالمبادئ الأخلاقية؛ فإنه لا ينفك عن
خطورته وفساده .

من هذه النظرة تكون الأخلاق خاضعة لسلطان
العلم , ومنبثة عنه , وتكون أيضاً فاعلة ,
ومؤثرة فيه .

فهناك إذن توحيد بين العلم والأخلاق ,
فبالرغم من أن تكوين الأخلاق يخضع للعلم , بل
هو الذي يبرز القيم الأخلاقية , ويقيم عليها
أدلته الآفاقية , والنفسية , كما يقول مالك
بن نبي: العلم بحرصه على الحقيقة يصبح
أخلاقاً لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري
التصحيح المطلوب عليه , فإن الخلاق غير
منفكة عن العلم , وإن أمكننا القول بأنها
لباب العلم , وغايته .

إن العلم في المصطلح الغربي , وعند
الذين يستخدمون مصطلحاته يجعلونه حيادياً ,
أو يسمونه – كما يقول توينبي – محايداً
أخلاقياً , وهذا غير سليم , بل العلم هو الذي

(1) من حديث الإمام الخميني لحرس الثورة الإسلامية بتاريخ
(19 رجب 1399 هـ) . ينظر: الإنسان محور التغيير ص 32 .

سيشهد على ضرورة الخلاق إلا إذا صارت
علماً (1).

يقول الإمام الخميني: <مهما ازداد تراكم
العلم - بما فيه علم التوحيد - ازداد
ابتعاد الإنسان عن الله - تبارك وتعالى - إن
لم يكن قلب الإنسان مهذباً >

<ينبغي بذلاً لجهود من أجل تهذيب الحوزات
العلمية الحالية والقادمة, وأن تكون هذه
الحوزات حوزات تهذيب, وحوزات سلوك إلى الله
تعالى إضافة إلى تدريسها علم الفقه,
والفلسفة, وأمثالهما > (2).

وعلى هذا فإن العلم في نظر الإمام
الخميني لا يثمر ما لم يقترن بالأخلاق, وإن
(تحصيل) العلم أسهم بكثير من تحصيل النفس؛
لذا كان كثير من المعتمدين ممن يفترض بهم
أن يكونوا في مستوى هداية الأمة وتهذيباً,
سبباً لإغواء أفواج من الناس.

<ما أكثر الأشخاص الذين كانوا من علماء
التوحيد, لكنهم كانوا سبباً لانحراف جموع
غفيرة من الناس > (3).

<حينما يكون عالم الدين المعتم غير
مهذب ففساده أكثر من أي شخص آخر. لقد ورد
في المأثور أن بعض أهل جهنم يضجون من جيفة
بعض علماء الدين, وعالمنا يعاني من جيفة
بعضهم >.

ويسوق الإمام الخميني: مثلاً منتزِعاً من
التاريخ المعاصر, فيقول:

(1) يقارن جودت سعيد, العمل قدرة وإرادة (دمشق
1400هـ/1980م) ص44. وكذلك مالك بن نبي, مشكلة الأفكار في
العالم الإسلامي, ص54.

(2) من كلمة للإمام الخميني ألقاها بمناسبة وحدة
الجامعيين وعلماء الدين (8 كانون الأول سنة 1980م).
ينظر: الإنسان محور التغيير ص17-29.

(3) الجهاد الأكبر: ص17.

<أتعلمون من حاكم المرحوم فضل الله نوري،
الفقيه الذي عارض مشروع الإصلاح الغربي خلال
الحركة الدستورية الإيرانية؟!>
حاكمه معمم زنجاني! عالم دين زنجاني،
حاكمه وأصدر حكم الإعدام بحقه(1).
ويعني هذا أن هذا الجانب الخلقى،
والجانب العلمي، يشكلان (الإنسان)، ويصنعانه
على وفق أيديولوجية توحيدية يعبر عنها
بالتوحيد العملي، وتعني بلوغ الإنسان إلى
توحيد أخلاقي وتوحيد اجتماعي>(2)، <بل إن
دراسة العلم مقدمة للحصول على مستوى خلقي
رفيع، فحاذروا أن تظلوا إلى آخر العمر
منشغلين بالمقدمة دون أن تحصلوا على
النتيجة>(3).

لقد نبه الإمام الخميني إلى أن إصلاح
النفس لا يبرح المعاناة في طلب العلم
واكتسابه، وبذلك يكون الالتفات إلى
<الباطل> أمراً ضرورياً يحتاج إلى بذل جهد
وتعب مستمرين، بمقدار ما يحتاج طلب العلوم
العقلية إلى جهد وتعب. من هنا أصر الإمام
الخميني على أن تكون الجهود المبذولة في
المجال الأخلاقي: <كلما خطوتم خطوة علمية
عليكم أن تقرنوها بخطوة في تهذيب النفس
وإصلاحها>(4).

وهو بذلك ينقل عن أحد أساتذته هذه
العبارة الثمينة:
<يقولون من السهل أن تصبح عالماً، ولكن
من الصعب أن تصبح إنساناً. ولكن هذا خطأ،

(1) من كلمة الإمام الخميني بمناسبة (وحدة الجامعيين،
وعلماء الدين).

(2) يقارن: مطهري، قضايا الجمهورية الإسلامية (بيروت 1401
هـ / 1981م ص 17).

(3) الجهاد الأكبر: ص 20.

(4) الجهاد الأكبر: ص 19.

ينبغي أن يقال: من الصعب أن تصبح عالماً ,
ومن المستحيل أن تصبح إنساناً>(1).

عالم الدين: المثل الأعلى

يجب أن يكون سلوك عالم الدين - في نظر الإمام الخميني - مثلاً أعلى للجميع. فالانحراف الذي يحدث في سلوكه يعرضه لمغبة أعمال جسيمة - باعتباره داعية لله , ومدلاً عليه - وأولها: قطع الصلة بين الناس , وبين الله؛ مما يؤثر على الفكرة والعقيدة التي تعني فكرة الإسلام , وعقيدته في التأثير على الآخرين , والامتداد في أوساطهم. <العالم الفاسد يجر مدينة بأجمعها , بل بلداً بأجمعه إلى الفساد>(2).

(1) نفس المصدر ص 16.

(2) من كلمة للإمام الخميني بتاريخ 1980/12/8م الإنسان محور التغيير, ص 27, والجهاد الأكبر, ص 10.

وتذوب في هذا المفهوم (مفهوم القدرة) فكرة الفيلسوف (كنت) في قواعد الأوامر المطلقة التي وضعها؛ فقاعدة (التعميم) عنده تنص على هذه الفقرة: <اعمل دائماً بحيث يكون في استطاعتك أن تجعل من فعلك قانوناً كلياً للطبيعة>, وقد عدها (كنت) مبدأً للسلوك الأخلاقي, ورأى تعميمها دون تناقض. وبذلك يكون بمقتضى هذه القاعدة وكأنه قدوة في عمله للبشرية جمعاء(1).

(1) اعتبر الفيلسوف الألماني (كنت) القانون الأخلاقي طريقاً لاستدلال على وجود الله, وخلود النفس, والحرية. فالعقل العملي (الضمير) عنده مشرع للقانون الأخلاقي, والأخلاق عماد البراهين لأن القانون أمر بالواجب الذي لا يتم الانسجام إلا به, ومن حيث أن الواجب قد يهمل أحياناً, فالانسجام يتخلف فيها. وإذا عجزنا عن تحقيق الانسجام دون تمكينه من التخلف ولو مرة واحدة فيجب أن تكون هناك قوة قاهرة كاملة تستطيع أن تحقق هذا الانسجام دائماً وهي (الإله). بعبارة ثانية إن مجرد إدراك التخلق بالفضائل مرتبط ارتباط وثيقاً بإدراك السعادة, وجدارتنا بالسعادة متعلقة بتمسكنا بالفضيلة. ولكن السعادة الواقعية لا تنبع دائماً من الفضيلة فيجب أن نعتقد أن هذه السعادة لا بد أن تتحقق بسبب كائن لا يحد متصف بالكمال المطلق, وبالعظمة البالغة حد النهاية والعدالة التامة والحكمة الوافرة. وإذن فبرهان وجود الله هو أولى نتائج (القانون الأخلاقي). ومن حيث أن كل ما في الأرض من سعادات ونعم لا تكفي إثابة شخص واحد على قيامه بالواجب مرة واحدة. فإذا أضفنا إلى هذا أن كثيراً من الفضائل والرذائل يعمل تحت ستار الخفاء, وإن ما يكتشف منها لا يكافأ أو يعاقب كما ينبغي, وأن هذه المعاملة تنافي العدالة, فيجب أن نجزم بأن هناك حياة أخرى وراء هذه الحياة تجري فيها العدالة الإلهية الجديرة بالكمال مجراها, وهذه النتيجة الثانية من (قانون الأخلاق). ومن حيث أن (القانون الأخلاقي) الذي هو من وحي العقل العملي (الضمير) يكلف الإنسان بالواجب, وإن التكليف لا يمكن أن يكون إلا للقادر, وإن القدرة لا تتحقق إلا مع الحرية فيجب أن تتحقق هذه الحرية لكي يمكن تحقق الواجب, وهذه النتيجة الثالثة (للقانون الأخلاقي). فمن الأخلاق تؤخذ براهين وجود الله, وخلود النفس, والحرية الإنسانية.

يراجع: عبد الكريم الزنجاني: دروس الفلسفة ج1 (النجف 1359هـ/1940م) ص 30.

إن مسؤولية عالم الدين ، في نظر الإمام الخميني - مسؤولية جسيمة تتعدى ذاته إلى الآخرين ، <فالعالم المنحرف يمكن أن يضل أمة بأسرها ، والعالم المستقيم - المتحلي بالأخلاق الفاضلة ، والمهذب لنفسه ، والملتزم بآداب الإسلام - يستطيع أن يصلح ويهذب أمة بأسرها> (1).

وينطلق الإمام الخميني من مفهوم <إذا فسد العالم فسد العالم> (2) إلى التمييز بين نمطين من العلماء :

الأول: العالم العامل ، الذي حدده بجملة صفات يمكن أن نرجعها إلى <الوعي> بالذات . وعليه استشهد بحديث الحواريين عندما قالوا لعيسى بن مريم : من نجالس؟ قال : من تذكركم الله رؤيته ، ويرغبكم في الآخرة عمله ، ويزيد في علمكم منطقه > .

وهذا ما يؤكد صراحة الحديث القائل : <كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ، ليروا منكم الورع ، والاجتهاد ، والصلاة ، والخير ، فإن ذلك داعية> ؛ أو الوعي الموجود تجريبياً على مستوى السلب الذي يعني به مجرد وعي الحاضر ، إلى الوعي الممكن الذي يشكل الوعي بالمستقبل ، وإن كان ناشئاً عن <الوعي الفعلي> ، ومتجاوز له . وذلك طبيعي لأن الوعي بالحاضر لابد أن يولد وعياً بإمكانية تغييره وتطويره ؛ الأمر الذي يجعل عالم الدين منفلتاً من مسائله الشخصية إلى مسألة التغيير الاجتماعي الملقاة عليه .

الثاني: ويطلق الإمام الخميني على هذا النموذج بـ <المتظاهرين بالتدين ، ومرد هذا التظاهر يرجع إلى عدم الوعي بالذات الذي هو غير الوعي ، أو الوعي الضمني .

(1) الجهاد الأكبر: ص 13 .

(2) نفس المصدر: ص 14 .

والوعي المتشكل من النظرة الحياتية للإنسان حجر الأساس في عملية <تجاوز الذات>، وبذلك يعوض عن الرغبات الداخلية، بقوانين أخرى تكون بدلاً عن غرائزه.

إن الإنسان بعد أن تجاوز مستوى ردود الفعل الداخلية، والغرائز الحيوانية المحددة على نحو واضح، أصبح قادراً على أن يستعيز عن ذلك بأمور جديدة، أكثر تعقيداً في عالم الأخلاق، والفكر، والفن، وكل ميدان أو نشاط مبدع. ويختلف الإنسان عن كل الأنواع السابقة بأنه يستطيع أن يصوغ في وعي منه قيماً، وتحقيق هذه القيم هو ما نعنيه اليوم بالتقدم (1).

فيكون وعي الإنسان قد أعطوه سمو على جميع أنواع الكائنات الحية الأخرى – على حد تعبير توينبي – ومكنه من تجاوز تطور الحياة النفسي – الاجتماعي – مرحلته البيولوجية الصرفة (2).

من هنا يكون الفارق بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى هم أن الحيوان تدفعه أنماطه السلوكية الموروثة، وعليه أن يكيف نفسه مع الضغط البيئي، وإلا انقرض، بينما، يخلق الإنسان أهدافه هو، ويكيف الطبيعة معها، مهما كان معتمداً على قوانينها، ذلك أن هذا الاعتماد يعني استخدام هذه القوانين في سبيل الأهداف الإنسانية والقيم الحضارية. وهذا يعني استخدام أن الإنسان يصنع نفسه، ويعيد صنعها وفقاً للأنماط المتتالية من حياته الاجتماعية، والاقتصادية، وهكذا يحقق مستوى

(1) جون لويس: الإنسان ذلك الكائن الفريد، ترجمة صالح جواد الكاظم (بغداد 1401هـ / 1981م) ص 245.

(2) نفس المصدر: ص 245.

الحياة الحضارية الثقافية والروحية التي
ينجزها المجتمع في تطوره (1).

نحو تكامل أخلاقي

إن التطور الذاتي، الذي هو مقدمة
للتطور الموضوعي، يرتبط ارتباطاً وثيقاً
بظهور الوعي، الوعي بـ (الأننا)، والوعي بـ
(الآخر)، وبذلك يتميز الإنسان باعتبار قوته
المفكرة، والمريدة عن الكائنات الأخرى؛
بمرحلة يمكن أن نسميها بـ <تجاوزات
الذات>. وهذا التجاوز لا يعني سوى نقلة
<غائية> لها امتداد غير قادر؛ مما يساعد
على دفع عجلة الحضارة بالانفلات من الماضي،
وعدم اتخاذ الحاضر مثلاً أعلى للتحرك؛ الأمر
الذي يعني بعبارة أخرى الانفلات من الذات،
وتجاوزها إلى مرحلة ارتقائية تبتني من
التطلع إلى المستقبل، وتصوره ببعده الناتج
من الوجود الذهني. هذا، وإن لم يكن
للمستقبل وجود موضوعي، فالمستقبل وهم
يفترض، إلا أن الامتداد الزمني - خصوصاً في
النظرة الإسلامية - غير متحيز بالزمن
الكوكبي، وإنما <الماضي والحاضر
والمستقبل> وحدة زمنية متدفقة يربط بينهما
التصور الإسلامي للكون والحياة. فالحضور
الإلهي، وإن كان ماثلاً في الماضي، فهو أيضاً
ممتد إلى الحاضر، ومهيمن على المستقبل.
فحصر طموحات الإنسان بمدار <الماضي> فقط،

(1) نفس المصدر: ص 243.

أو <الحاضر> يعني توقف نشاط الواقع المتحرك ضمن إطار الماضي والحاضر؛ الأمر الذي يحجم عملية <الارتقاء التكاملي>، ويحدها في مسار تقليدي. يقول حديث ماثور <من تساوى يوماه فهو مغبون> مما يعني التركيز على الفعل الإنساني، وانعكاسه على الفاعل، وهو ما يندرج في خط الارتقاء التكاملي الذي يعني خلق الفعل التغييري المتجدد، بلحاظ تجاوز <الآن> إلى <الآخر>. فالأيام حسب الحديث الماثور، تقيم بالفعل، فعل الإنسان وحده. والتأكيد على فاعلية الواقع لمتحرك يعني تجاوز الحد الماضي الذي سينتقل في لحظة آتية إلى <الآن> والذي سيتحول في لحظة أخرى إلى <استقبال>، ومن خاصية هذا الانتقال أن يكون انتقالاً ارتقائياً تكاملياً ينحصر في إطار العلة الفاعلية، والعلة المادية بلحاظ العلة الغائية؛ عندما تكون العلة الأولى مرتبطة بالفاعل، والثانية مرتبطة بالمجتمع؛ الأمر الذي ينتج التفاعل بين طرفي العلتين الفاعلية والمادية، ويضع الفعل الإنساني في أعلى مراحل المتحركة ضمن إطار <النظرة التوحيدية> للفرد والمجتمع، وهي نظرة إسلامية في الصميم.

الركائز الأخلاقية الثلاثة

لما كان الإسلام مهتماً بدوافع العمل لا بمنافعه, أكد الإمام الخميني على مسألة <النية>(1) باعتبارها مبدأ للعمل الصالح. فإذا لم تتوفر النية الصالحة لا يكون العمل نافعاً مهما كانت منافعه التي تنشأ عنه, لأن الإسلام لا ينظر إلى المظهر الخارجي للعلاقات الاجتماعية فحسب, ولا يعني بالجانب الموضوعي من التعايش الاجتماعي؛ إيماناً منه بأن هذا الجانب, وذلك المظهر ليس إلا صورة عن حقيقة أعمق وأخطر, تعيش في داخل الإنسان(2). فالنية انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض, من جلب نفع, أو دفع ضرر حالاً ومآلاً, وهي إرادة متوجهة نحو الفعل ابتغاء لوجه الله, وامثالاً لحكمه. وقد قرنت بالقصد, أي عزم القلب على شيء, وتوجهه إليه توجهاً تاماً حتى يستقر عليه(3)؛ ليضع المعنى المرتبط بالعمل تحت اسم <النية>, كما يضع

(1) الجهاد الأكبر: ص 73.

(2) السيد محمد باقر الصدر: العمل الصالح في القرآن ص

10.

(3) جميل صليبا: المعجم الفلسفي ج2 (بيروت 1402هـ/

1982م) ص 513.

المعنى المنصرف إلى الغاية تحت اسم <القصديّة> (1).

وكثير استعمال <القصديّة> في التعبير عن التوجه الإرادي أو العملي، وإن كان بعض الفلاسفة يطلقونه على التوجه الذهني. فإما القصد الدال على التوجه الإرادي فهو إما مشروع، وإما هدف، فإن كان مشروعاً دلّ على مجرد العزم على الفعل والانبعث نحوه، وإن كان هدفاً دلّ على الغاية التي من أجلها حصل التوجه. فالنجار - مثلاً - يقصد صنع خزانة جميلة (وهذا مشروع) أو يقصد مع ذلك أن يشتهر، ويكتسب ثقة الناس (وهذا هدف).

كما أن مصطلح اتجاه القصد - يطلق على <الموقف الفكري> الذي يوجب على المرء فعل شيء له جانبان؛ أحدهما جميل، والآخر قبيح كالربان الذي يخرق سفينة لا ليغرق أهلها، بل ليتفادى من وقوعها في أيدي الأعداء، فهو إنما يفعل ذلك لاعتقاده أن خرق السفينة في مثل هذه الظروف أفضل من بقائها سليمة. وهو معنى <إنما الأعمال بالنيات>، فكأن قيمة العمل تابعة لنية الفاعل، أو كأنها مستقلة عن النتائج الخارجية الناجمة عنها (2). وعلى ذلك ميّز الفلاسفة بين مادة الفعل الأخلاقي، وبين صورته باعتباره أن مادة الفعل هي ما وقعت فعلاً، أما صورته فهي النية المرادة منه.

فإذا تصورنا أن طبيباً أخطأ فأعطى مريضه دواءً فمات، فهو يعتبر قاتلاً من حيث مادة الفعل، لكنه من حيث صورة الفعل يعتبر بريئاً، وغير مدان أخلاقياً.

أما لو كان الفعل جرى معكوساً بمعنى أن الطبيب كان يقصد قتل مريضه، فوضع له بدل

(1) محمد عبد الله درّاز: دستور الأخلاق في القرآن، تعريب د.

عبد الصبور شاهين، (بيروت 1393هـ/1973م) ص 423.

(2) ينظر: المعجم الفلسفي، ج 2 ص 193، <مادة القصد>

السم دواءً , فلم يمت؛ فهو لا يعتبر قاتلاً من الناحية المادية , لكنه مجرمٌ - أخلاقياً - بحسب نيته . وعلى ذلك فالفعل الشرير يزداد شراً إذا كان وليد نيته شريرة , كما أن فعل الخير يتضاعف إذا كان وليد نية خيرة . وعلى هذا يعتبر <عقل الإنسان> من المبادئ المؤثرة في صيرورة الفعل ذا قيمة خلقية . فالفعل الصادر عن الغرائز بالقيم الأخلاقية .

فالفعل الأخلاقي <إنما يكون ذا قيمة لأنه يصدر عن كائن مزود بدوافع نفسية متدافعة , ويختار الجانب الذي يغني به العقل بإرادته الحرة على سائر الجوانب , فكأنه يدفع سائر المبتغيات كئمن لما يشتريه من الفضيلة , ولهذا تصير الفضيلة ذات قيمة> (1) , ليظهر دور الإرادة الحرة في القيمة الخلقية .

لقد ظهر تأكيد في كلمات الإمام الخميني على مفهوم إصلاح <النية> وتزكيتها بما يلائم جلال الله ورضاه , والإقبال نحوه بالعبادة الصادقة التي لا يشترك معها أي غرض آخر , وهو بذلك يعالج ظاهرة الاستغراق في العبادة المنفصلة عن الوعي العلمي , كما يفعل بعض المصلين لطلب الجنة , وحوورها ؛ وهذه عبادة (التجار) لا (الأحرار) .

يقول الإمام الخميني: أيها المسكين الغافل عن المعارف الإلهية , الذي لا يعرف شيئاً سوى الشهوة والغضب .

والمستغرق في الأدعية والأذكار , والمستحبات , والواجبات , والتارك للمكروهات والمحرمات , والمتخلق بالأخلاق الحسنة , والمتجنب للأخلاق السيئة , اجعل أعمالك في ميزان الإنصاف لترى أنك تقوم بها للوصول إلى الشهوات النفسية , والجلوس على أسرة من الأحجار الكريمة , واحتضان الحور العين ,

(1)

ولبس الدمقس والإستبرق, والوصول إلى
الرغبات النفسية.

هل تختلف أنت مع العامل الذي يعمل
مقابل الأجر؟! فإذا قال إنه لا يعمل لأجل
صاحب العمل فقط فإنك تكذبه, ألم تكن أنت
قد أصبحت مثله؟

دعني أصرح أن كل هذه العبادات تعتبر من
وجهة نظر العرفاء والأولياء من الذنوب
الكبيرة (1).

بهذا يظهر مقام <النية> الصالحة في
العمل, والأثر البناء الذي تتركه على
الفعل (2), خصوصاً إذا لم نغفل عن المنهج
العرفاني الذي ساقه الإمام الخميني, وتمثله
في كلماته.

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نظهر ثلاث
ركائز للأخلاق:

الأولى: المعرفة الأخلاقية.

الثانية: القيم الأخلاقية.

الثالثة: التصرفات الأخلاقية.

إلا أن النظرة التي نجدها عند الإمام
الخميني, تركز على مردودات الفعل الناتج
عن (النية). ويمكن أن نجعل (المعرفة) و
(القيم) مساوين لمفهوم (النية).

ولما كانت <النية> بمعناها الواسع حركة
تنتزع بها الإرادة نحو شيء معين سواء
<لتحقيقه> أو <لإحرازه> فإن الموضوع
المباشر للإرادة الفاعلة هو <العمل> الذي
تشرع في أدائه.

(1) الرياء والعجب: ص 138. محمد جواد المهري, جوانب من
أفكار الإمام الخميني ص 24.

(2) ورد في بعض الماثورات أن الله قال لداود: بشر
المذنبين, وأنذر الصديقين, قال: كيف ابشر المذنبين,
وأنذر الصديقين؟ قال: بشر المذنبين إنني اقبل التوبة,
وأعفو عن الذنب, وأنذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم
فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك.

وما دام العمل الباطني لا يشمل على بداية للفعل فمن الممكن أن نتساءل عما إذا كان قد تجاوز نهائياً مرحلة تكوّن الأفكار النظرية، ومرحلة التأمل الجمالي ليدخل إلى مجال الممارسة الأخلاقية، أو حتى مجال الممارسة وحدها، بعبارة أخرى <مجال الإرادة> ذلك أن الإرادة تنطلق من الفكرة متجهة نحو العمل. فهي توجّه في المثالي إلى الواقعي، وعلى هذه المسيرة من الباطن إلى الظاهر، ومن الشعور إلى التجربة، يوجد الفعل الأخلاقي. وهذا الفعل ليس حالة سكونية، عبادة في خلوة، حبيسة في دير القلب، بل وثبة حية، وحركة ذات انتشار، نقطة انطلاقها في الداخل، ونقطة انتهائها في الخارج. وهكذا نجد النية لا تقتصر على أنها دعوة لعمل، وتوقع أن يتبعها فحسب، بل إنها تحتويه كنطفة، إن لم يكن وليداً⁽¹⁾.

وعلى الرغم أن بعض الفلاسفة ناصر جانب المعرفة الأخلاقية، واعتبره حجر الزاوية في الأخلاق، وبعضهم ناصر جانب القيم الأخلاقية، واعتبره جوهر الأخلاق، كما أن بعضاً آخر ناصر جانب التصرفات الأخلاقية، واعتبره وحده الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار دون المعرفة، ودون القيم؛ فإن السلوك الأخلاقي يتضمن بالضرورة هذه الركائز الثلاثة⁽²⁾.

(1) درّاز: دستور الأخلاق، ص 447.

(2) من الذين قالوا بالمعرفة الأخلاقية، التي تساوي الإدراك كأساس للأخلاق؛ الفيلسوف اليوناني سقراط الذي اعتبر أن المعرفة خير، والجهل شر. والمعرفة عنده التي تلزم صاحبها بإتيان السلوك المطابق للصورة الذهنية. وبمقابله عوّل فلاسفة أخلاقيون على عواطف ونيات الشخص في التصرف، ولم يعيروا اهتماماً لنتائج السلوك، فالمعرفة في رأيهم تتصل بالواقع الخارجي (مجال المدركات)، وعلى ما يتعلق به من انطباعات معرفية. أما البرجماتيون (النفعيون) فقد عوّلوا على النتائج العملية التي تأتي عن التصرف الأخلاقي.

يقارن: القوى الروحية في المجتمع، ص 64-71.

إن دوافع العمل, على هذا الاعتبار, تختلف باختلاف المذاهب الفلسفية التي تنبثق عنها نوعية المفاهيم الخلقية؛ وعليه فإن الإمام الخميني ينطلق في تقييمه للعمل من (الداخل), من داخل الإنسان, أي باقتران العمل بالمحتوى الداخلي للإنسان ليبقى دائراً في إطار الإيمان, وبدافع إلهي, وبذلك يختلف عن أي عمل آخر لا يدور ضمن هذا المدار.

بين العقيدة والخلق

أكد الإمام الخميني في محاضراته على بناء الإنسان العقائدي بناءً أخلاقياً يلزمه أن يتقدم في تصعيد الجانب الروحي <وهو منحي إيجابي>, ويخلص لتنزيه النفس من التصرفات غير المتناسبة مع ما تمليه عليه طاقته الروحية وهو <المنحي السلبي>. والطريق التي أخطها الإمام الخميني تنحصر في وضع برنامج أخلاقي يؤكد فسح المجال

للدارسين من الطلبة لتعيين الدروس الأخلاقية جنباً إلى جنب مع الدروس العلمية, كما يؤكد أيضاً على تشكيل مجالس للوعظ, والإرشاد لما فيها من تأثير في توعية الناس, وتربيتهم تربية خلقية سليمة(1).

ولما كان الإمام الخميني مهتماً ببناء الكادر القيادي المتمثل بعلماء الدين فإنه أكد على أهمية تصديهم لمهامهم الرسالية على أكمل وجه, بامتزاجهم مع الأمة, واندكاكهم فيها. فهم والأمة يمثلون القمة والقاعدة. باعتبار أن القمة هي النخبة (القيادة الفكرية) صاحبة الوعي لتوقعات الأحداث في سير الأمم, وقيادة القاعدة على جادة الصواب عند حلول الأزمات الاجتماعية. والقاعدة هي موطن الإخلاص, والطاقات المتفجرة التي تأتي بالأعمال حين تستخدم الاستخدام الصحيح, وتقاد القيادة السليمة (2). وعندها يصبح عالم الدين جزءاً غير منفصل عن القاعدة الجماهيرية, ليكمن تأثيره في التغيير.

لذا فإن الاختلاف الواقع في صفوف العلماء يُعدُّ من أخطر الاختلافات على الإطلاق باعتباره ينجر إلى تمزيق الأمة واختلافها, وبالتالي ضياع الجهود الرسالية في العمل.

لقد حذر الإمام الخميني من الاختلافات هذه, ونبه إلى أن عالم الدين قوي بما له من هيمنة على الجماهير, وتأثير في صفوفها, فقوته مستمدة من قوتها, بل أن وجوده مستمد من وجودها.

<إن الأعداء يعلمون مدى تأييد الأمة للحوزات العلمية, ويعلمون أنهم يصعب عليهم القضاء على هذه الحوزات ما دام هذا التأييد قائماً, ولكن عندما يفقد أفراد

(1) الجهاد الأكبر: ص 27.

(2) العمل قدرة وإرادة, ص 28.

الحوزات وطلابها المباني الأخلاقية , ويصبح شغلهم الشاغل تحطيم بعضهم الآخر, ويصبحون جماعات متنافرة ومتناحرة , لا يتورعون عن الأعمال <اللا أخلاقية>؛ فإن الأمة بشكل طبيعي وتلقائي ستسوء نظرتها إلى الجامعات العلمية الدينية ثم تسحب دعمها , وتأييدها لها , وهكذا يفتح الطريق واسعاً أمام الأعداء لتسديد ضرباتهم إلى هذه الجامعات.

يجب أن تعلموا أن الدول لا تخاف من علماء الدين , ومن المراجع , وما خوفهم هذا في الحقيقة إلا من (الأمة) , فهم يعلمون أن قوة المرجعية تكمن في تأييد الأمة لها , والثقة بها>(1).

فمعالجة الإمام الخميني للنزاع القائم في وسط الجماعة المسلمة ينطلق من الموقف الأخلاقي أيضاً. فعندما يهبط ميزان الأخلاق تظهر فجوات تمكّن الأعداء من تمزيق الصفوف , وفرض سيطرتها.

إن هبوط <الوعي> يورث عدم الالتزام بالقيم الخلقية , فتنشأ ظاهرة محاربة الكيانات الدينية بعضها الآخر ليتولد الانقسام أحزاباً وشيعاً , وحينئذٍ تفقد الأمة كيانها وفعاليتها.

عالج الإمام الخميني <الخطر الداخلي> الذي يصيب الجماعات , ويؤدي إلى إضعاف طاقاتها الهائلة التي لا يمكن للأعداء تحطيمها من <الخارج> , وبذلك يرى هؤلاء الفرصة المؤاتية لزرع الفتن داخل الجماعات , وتغذيتها بما يلاءم إذكاءها بالطريقة التي تؤتي نتائجها في تهشيم الكيانات وتفتيتها؛ لتفقد دورها الفاعل في عمليتي البناء , والتغيير.

والاختلاف الذي يحصل في وجهات النظر , الذي يؤدي إلى اختلاف سلوك الجماعات

(1) الجهاد الأكبر: ص 28.

الإسلامية, ينشأ عادة من النظرة المحدودة التي تنبثق عن مفهوم الإنسان في المدرستين المادية والإلهية, وبالتالي يتعلق بنظرته للكون والحياة.

وإذا كان إنسان المدرسة المادية لا يقر إلا بوجود المحدد في السنوات التي يقضيها على هذه الأرض؛ فإن من العجب أن يحصل الاختلاف بين أصحاب المدرسة الإلهية المعتقدين بفناء هذه الحياة الرخيصة, وبوجود امتداد لها أكمل وأنفع.

وبالتالي تختلف القيم, والمفاهيم في كلا المدرستين بناءً على اختلاف نظرة كل منهما للكون والحياة.

يقول الإمام الخميني: <هذه الاختلافات خطيرة, تترتب عليها مفاسد لا يمكن أن تجبر, إنها تهوي بالحوزات العلمية إلى مكان سحيق, وتفقدكم مكانتكم الاجتماعية, كما تقلل أهميتكم في عيون الأمة, ولا تجنون من المحوريات إلا ما يضركم, وليست تضركم أنتم وحدكم, إنها مضرّة بالأمة, مضرّة بالإسلام. وعندما تكون اختلافاتكم بهذه الخطورة فإنها ذنوب لا تقبل العفو والغفران, وهي أعظم من كثير من المعاصي, لأنها تفسد المجتمعات, وتفتح الباب واسعاً أمام تسلط الأعداء, وبسط نفوذهم (1).

إن حب الدنيا – كما يقول الإمام الخميني – وحب النفس هما الموصلان إلى هذا الواقع المظلم (2). وهو بذلك جعل عالم الدنيا مقابلاً لعالم لم يحن بعد, وحذر من (الأولى) بمقدار ما حُبب إلى (الآخرة). فعملية الالتصاق بالدنيا هي التي تولد المشكلات بين بني الإنسان لأن الهم والوحيد فيها هو إشباع الرغبات النفسية, وتحصيل الملاذ الشخصية,

(1) الجهاد الأكبر: ص 34.

(2) الجهاد الأكبر: ص 35.

أما تعدي هذه الأطوار بما يلاءم النظرة السامية في التعامل مع الدنيا من خلال منظور الآخرة؛ فإنه عامل أكيد في إرساء القيم الخلقية، وتحسين العلاقات بين بني البشر.

لقد حذر الإمام الخميني من صفة خطيرة ترتكز على حب النفس، وتنبع منها، تلك هي (الأنانية) وهي نوع من البخل يحرص عليه بعض الناس لتركيز مكانتهم الاجتماعية، وتحصيل رغباتهم الدنيوية.

هذه الأنانية التي يفرضها على الناس حبهم المفرط للأعراض الدنيوية قد تبدو في صورتين، أحدهما: يمكن أن تكون ساكنة، والأخرى متحركة، أو محتكرة.

وأول أنواع الأنانية نشاطاً تلك التي تحمل الإنسان على الانطواء على نفسه، فتجعله قليل الإيثار، قليل الإحسان، ضئيلاً بما يملك؛ على حين أن الأنانية الجشعة الجامحة لا تقنع بوضع سلبي، وإنما تمعن في جميع المكاسب، والمنافع بكل وسيلة(1).

لقد كان الإمام الخميني يدعو لإعلاء شأن إنكار الذات، ولم يكن داعياً لاعتزال العالم؛ لعلمه أن الفرار من العالم أيسر للإنسان من الفرار من ذاته. لذلك طالب بكبت الأنانيات، واتخاذ الاعتزال وسيلة لبلوغ الهدف، فإن من أعظم المدارك أن يشارك الإنسان في كسر جدار الذات، والتحرر من أنانيته لشيد العالم على قاعدة من المبادئ السديدة، حينئذ ينظر للعالم نظرة التائق لافتدائه، لا المنتفع به.

وعملية تصفية النفس، وتصعيدها إلى درجات التكامل تتم بالمعرفة - أولاً - والمبادرة إلى الرياضة النفسية - ثانياً - لتتوجه رغباتها وجهات لا تصادم بينها، وبين

(1) دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص550.

العالم الخارجي, وما عملية التكامل الروحي إلا غاية لعالم <التسامي> المطل على التحكم بالصلة بين البنين الداخلي <النفسي> والبنين الخارجي, وتنظيم الصلتين بعضهما بالآخر. وما قطع علاقات الغرائز, أو بعبارة أدق: الارتفاع عليها, إلا واجهة من واجهات هذا التسامي.

فلا ينبغي للتسامي أن يفهم باستغناء الإنسان عن العالم الخارجي كما يفعل بعض المترهبين بالبحث عن السعادة في قلب الأشياء, وفي عقولهم؛ فإن الإشباع الذي حصل عليه مثل هذا الراهب إنما تم له عن طريق توهم الحقيقة, وليس تمثلها, ومن خلال الأوهام, وليس الحقائق, وهو يعرف أن الأوهام أوهام, ولكن معرفته هذه لم تحرمه اللذة التي يحصلها بالتوهم. وهو يستمد أوهامه من عالم الخيال, هذا العالم الذي لم يدخل اختبار الواقع وقت أن كان إحساس الشخص بالواقع يتطور, وكان استثناءه من اختبار الواقع ومما يتطلبه الاختبار لأنه كان يحتاج إلى إشباع رغباته التي لن يتيسر له إشباعها دون أن يتخيل, ويتوهم(1), وإنما فكرة <التسامي> لا تخرج عن مفهومها العلمي, وإن كانت على صلة بمفهوم <العزلة> لكنها نوع من العزلة الإيجابية التي تمكن الإنسان

(1) وصف سيجموند فرويد هذا النوع من الإشباع وصفاً استعماريًا, معتبراً التسامي أو (الإعلاء) عملية تتم لا شعورياً يتوجه بواسطتها (الليبدو) أو الطاقة, أ, يتحول إلى ميادين أخرى يستنفذ فيها, ويقرها المجتمع, والعرف. ويعتبر فرويد عملية الخلق الفني عملية تسام.

يقول فرويد حول التسامي إنه لا يعاب على هذه الطريقة سوى إنها لا تنطبق على كل الناس, وتصلح فقط للقلة, وتفترض فيمن يقبل على التسامي أنه إنسان له مواهب, وميول خاصة لا توجد عند عامة الناس بالقدر الذي يمكنهم من ممارسة التسامي.

سيجموند فرويد: الحرب والحضارة, ترجمة د. عبد المنعم الحفني (القاهرة 1367هـ/1977م) ص 62-66.

من السيطرة على غرائزه , وتوجيه أفعاله
الوجهة المتسامية. فلا توجد صلة سلبية بين
التسامي , والواقع الخارجي, بل أن التحكم
بغرائز النفس وتوجيهها يعني – بعبارة
مختصرة – التحكم بالواقع الخارجي وتسييره .
ومعرفة الإنسان لذاته نوع من صدقه مع
نفسه وإن في إدراك حقيقة الذات إزدراءً
للذات.

يقول الفيلسوف ديكارت: كلما قلت معرفة
الإنسان بنفسه ازداد كبرياء , ذلك أن معرفة
الإنسان لنفسه تجعله يدرك ما في نفسه من
عيوب , ونقائص فيتواضع , ولا يستكبر على
الناس. ومعرفة الإنسان لنفسه تجعله يعرف
نفسه على حقيقتها , (لا كما يريد أن يوهم
الناس) يعرفها عارية بلا تزويق , ولا نفاق ,
ولا خداع(1).

إن معرفة النفس لا تأتي إلا بعد مرحلة
عنيفة من الصراع الذاتي المنبعث من
مردودات التأمل العميق , ومنبع كل ذلك
(العزلة) .

و(العزلة) بجانبها الإيجابي تختلف عن
العزلة السلبية <الرهبانية> التي جاءت
النصوص الدينية لنفيها .

لقد اتخذ بعض الروحانيون طريق العزلة –
بمعنى الانقطاع عن الآخرين , والتوجه إلى
الرياضة النفسية للتخلص من الفتن
بالمجاهدة العنيفة – سبباً للنجاة من محن
الدنيا , وصعابها . وهذا الانقطاع الانفرادي لا
يتلاءم مع الواقع إذا أريد منه العزلة على
المدى البعيد , بمعنى <العزلة من أجل
العزلة> . هناك نصوص تؤكد على الاعتكاف –
مثلاً – أو الانقطاع بالإكثار من النوافل أو
إحياء الليالي المفضلة؛ إلا أن هذا النوع
من العزلة لا تعني فصل الفرد عن الآخرين, بل

(1) د. عبد الرحمن بدوي: الأخلاق النظرية , ص 212 .

تعني التأكيد على تهذيب النفس من خلال ممارسة الطقوس العبادية لتأثيرها في الآخرين, أو لتمكينها من التأثير على الآخرين.

إن في بعض النصوص الحديثية ما يؤكد على فائدة الالتزام بالعزلة, والتأكيد على فوائدها, وهي تنحصر في التطور من قيمة المعرفة التأملية في الآفاق والأنفس, ونبذ الصراع الذاتي المتشعب من خلال تعدد الأهواء, والرغبات, وتباينها. وبذلك تنحصر الفائدة فيما يلي:

1- الاستئناس بالعبادة, ومناجاة الله.

2- التخلص من رذائل الأخلاق, وتصفية الباطن منها.

وقد روت نصوص تحت على العزلة منها: أن الزاهد معروف الكرخي طلب من بعض الأئمة موعظة.

فقال له: أقلل معارفك, وأنكر من عرفت منهم.

وروي عن بعض الصادقين أنه قال: لولا الموضع الذي وضعني الله فيه لسرني أن أكون على رأس جبل لا أعرف الناس ولا يعرفوني حتى يأتيني الموت(1).

على أن العزلة يمكن أن تكون غير جسيمة - (الابتعاد عن الآخرين بالانزواء) - وهي ما يعبر عنها بالعزلة الروحية, أو العزلة القلبية لا البدنية, التي يعيشها بعض الأفراد منفردين بسبب عدم التوافق بين الفرد والآخرين في جانبي الفكر والسلوك. وهي ممدوحة - فعلاً - كعملية مراقبة للذات, والخارج عنها لاحتواء الآخرين, وتحديد نقاط ضعفهم وقوتهم للتغلب عليها, أو تغييرها.

(1) عبد الله شبر, الأخلاق, دققه: جواد شبر (النجف 1973م) ص

قيل في هذا الصدد: طوبى لعبد عرف الناس, فصاحبهم ببدنه, ولم يصاحبهم بقلبه, فعرفوه في الظاهر, وعرفهم في الباطن. وقيمة العزلة - سواء من النوع الأول, أو الثاني - تتحدد بالمؤهلات العلمية فلا بد للمعتزل من العلم في المسلك الذي هو عليه, وقد قيل <إن العزلة لا بد فيها من العلم والزهد كما تنبئ عنه عينها, وزاؤها. فالعزلة بدون عين العلم ذلة, وبدون زاء الزهد علة, وبدون لام الجهل عزة>(1), فالجاهل لا تليق به العزلة.

تنمية الجوانب الروحية

عالج الإمام الخميني مسألة <الأعراض> الدنيوية معالجة أخلاقية مستمدة من روحانية الإسلام طاقتها ومفاهيمها.

1- حذر من حب الدنيا التي هي رأس كل خطيئة:

<أولئك الذين يشعلون قسماً من العالم اليوم الآن, وينفخون في النار المتأججة فيه, ويعمقون الفتن والاضطرابات, إنما يتسابقون للسيطرة على الشعوب, وابتلاع ثرواتها, ونهب خيراتها, وإبقاء الدول الضعيفة المتخلفة تحت نفوذهم, فهم يثيرون كل يوم حرباً في زاوية من العالم تحت عناوين خداعة, فتارة لتحرير شعوب, وتارة للتنمية الاقتصادية, وأخرى للدفاع عن

(1) الأخلاق: ص 122.

الاستقلال. وبالتستر وراء هذه الشعارات يقذفون ملايين القنابل فوق رؤوس الشعوب المستضعفة.

هذه الحروب مبررة بحسب منطق أهل الدنيا, وعقولهم الملوثة؛ أما (حروبكم) أنتم واختلافاتكم فيما بينكم فهي غير مبررة حتى على منطق هؤلاء, لأننا إذا سألناهم لم تتنازعون وتتحاربون؟ فإنهم سيقولون: نريد أن نحتل الدولة الفلانية, ونخضعها لنفوذنا, ولكن إذا سئلتهم أنتم لم تتنازعون, وعلى أي شيء, فماذا ستجيبون؟ إنه ليس لكم من الدنيا شيء يستحق هذا الاختلاف>(1).

2- ذكّر بالآخرة:

<في جهنم مكان للخصومات, والنزاعات. إن أهل جهنم ينشبون أظافرهم بعضهم ببعض, وأنتم بصراعتكم على الدنيا, وتكالبكم عليها إنما تسيرون نحو جهنم, وتأخذون مواقعكم فيها>(2).

3- جعل قنطرة (الدعاء) تشد العبد بربه:

معتبراً هذا السلاح الروحي وسيلة توصل النفس نحو الانقطاع إلى الله:

<لا يحصل الانقطاع ببساطة, بل يحتاج إلى ترويض للنفس, وإلى بذل الجهد والاستقامة والممارسة, وبدون ذلك لا يكون بوسع الإنسان أن ينقطع عن كل ما سوى الله سبحانه وتعالى>(3).

<إن كل الصفات الإيمانية الجليلة, وكل مستويات التقوى الراقية تكمن في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى, ومن يتمكن من الوصول إلى هذه المرحلة فقد بلغ قمة السعادة>(4).

(1) الجهاد الأكبر: ص 32.

(2) نفس المصدر: ص 35.

(3) الجهاد الأكبر: ص 45.

(4) نفس المصدر: ص 45.

وعليه فإن حديث الإمام الخميني عن <المناجاة الشعبانية> المروية في الأسانيد المعتبرة يحتل مكاناً في محاضراته. فقد أشار إلى أن هذا الدعاء بالرغم من فاعليته بتحريك الجانب الوجداني الكامن في النفس على أساس العاطفة؛ فإنه أستخدم لبيان كثير من المسائل العقائدية والتربوية أيضاً.

يقول الإمام الخميني: كان الأئمة يوضحون كثيراً من المسائل بواسطة الأدعية، أسلوب الدعاء يختلف كثيراً عن الأساليب الأخرى التي كانوا يستعملونها لبيان الأحكام، والمسائل الإيمانية والعقيدية، وكل المسائل الدقيقة المرتبطة بمعرفة الله سبحانه كانوا يبينونها في الأدعية وبأسلوبها. من المؤسف أن نقرأ هذه الأدعية، ونمرُّ عليها دون أن نتأمل فيما تحمله من معانٍ دقيقة، ودون أن نعرف ماذا يريد هؤلاء الأئمة أن يقولوا>(1).

ثم يعرض فقرة من المناجاة الشعبانية كنموذج للتأمل، والاستغراق العميقين:
<إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تحرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك>.

الحكمة العملية

أكد الإمام الخميني في محاضرات <الجهاد الأكبر> على موضوع <الحكمة العملية> المفسرة للخير والشر، التي تقابل <الأخلاق المطلقة> وهي مجموع قواعد السلوك الثابتة التي تصلح لكل زمان ومكان. ولما كانت الجوانب الأخلاقية التي جاء بها الإسلام كلية وعمامة كان التركيز في هذه المحاضرات على

(1) نفس المصدر: ص 44.

الجانب التطبيقي (السلوكي) المندفع من المفاهيم، والتصورات الذهنية(1). كما أكد على إيراد الأمثلة الحسية التي تلفت النظر نحو (الموقف) الأخلاقي، وقلب النظام الذاتي إلى نظام جديد يستند على تمثّل <الفكرة> تمثلاً شعورياً عميقاً. فهو عندما يتحكم على المعاني الرئيسية في الأخلاق يبادر إلى أنواع خاصة من الشواهد. ففي حديثه عن الأمراض الذاتية (الغيبة، الحسد، إساءة الظن، الأنانية، الغرور، التكبر) يميز بين مرضين، المرض المصحوب بالألم، والمرض غير المصحوب بالألم، فيقول:

<من سعادة الإنسان أن لا يبتلى بمرض غير مؤلم؛ إن الأمراض التي يصاحبها الألم يندفع صاحبها تحت وطأة شعوره للمعالجة. فيذهب إلى عيادة الطبيب أو إلى المستشفى للمعالجة، أما المرض الذي لا يرافقه الألم، ولا يحس الإنسان بوجوده المؤثر فإنه خطر جداً، ولا يشعر الإنسان به إلا بعد فوات الأوان، واستحالة المعالجة>(2).

ثم يجعل الأمراض الذاتية من القسم الثاني.

<والأمراض النفسية من هذا القبيل إذ لو كانت مصحوبة بالألم المباشر لحركت المصاب، ودفعته إلى معالجتها، ولكن ماذا نفعل ما دامت هذه الأمراض رغم خطورتها لا يصاحبها الألم>.

(1) الحكمة العملية تنقسم إلى قسمين: أحدهما عام مشتمل على مبادئ السلوك الكلية، والآخر خاص مشتمل على تطبيق هذه المبادئ في مختلف نواحي الحياة الإنسانية. وجماع ذلك كله تحديد ما يجب أن يكون، لا وصف ما هو كائن في الواقع. (المعجم الفلسفي، ج2، ص50.

(2) الجهاد الأكبر: ص 68.

لم تكن هذه الأمراض مجردة عن الألم فحسب بل أنها مصحوبة باللذة (1) - كما يقول الإمام الخميني - لأن <مجالس الغيبة مشوقة ومحبة> (2). ولما كانت هذه الأمراض نابعة - من نظر الإمام - من حب النفس, وحب الدنيا, فإن أثر الاستجابة سيصبح أكثر لذة وعمقاً <إن العطشان الذي يقبل على شرب الماء قد يختنق, لكنه يظل يشعر باللذة إلى آخر نفس من أنفاسه> (3).

وهو عندما يؤكد على ضرورة العمل الصالح, وتهذيب الباطن, يجعل الصلة وثيقة بين المسلم, وصاحب الرسالة, ويضرب مثلاً لذلك بقوله: <إن الشخص الذي يرتبط بك حتى لو كان خادماً لك, فإنه يخجلك إذا ارتكب عملاً مشيناً>. وهذا يكشف عن العلاقة بين المسلم, وصاحب الرسالة: <فإنكم إذا ارتكبتم عملاً قبيحاً فإن ذلك يمس الرسول, والرسالة الإسلامية بالصميم> (4).

كما يؤكد الإمام الخميني على أن حقيقة الإيمان بالله يستوجب معرفته التي تقود إلى خشيته, ويقرب ذلك بمثال حسي مفاده أن الإنسان يمتنع عن ارتكاب الذنب لوجود طفل مميّز يراقبه فيمتنع من كشف أمره بسبب إيمانه بوجود هذا الطفل, مما يجعل الإنسان المعتقد بوجود الله وحضوره مراقباً لأعماله وسلوكه خشية أن يصدر فعل منه ينافي الورع (5).

(1) الجهاد الأكبر: ص 68.

(2) نفس المصدر: ص 69.

(3) نفس المصدر: ص 69.

(4) نفس المصدر: ص 53.

(5) الجهاد الأكبر: ص 73.

دروس من سيرة العلماء

ركّز الإمام الخميني في أحاديثه على مروياته , ومسموعاته - بخصوص الشخصيات الدينية والتربوية - ونقل قسماً منها؛ فمن ذلك - وهو في معرض حديثه عن ضرورة دراسة علوم الأخلاق والسلوك قوله: <سمعت مراراً أن الشيخ الأنصاري, وهو أستاذ في الفقه والأصول, كان يدرس على يد مدرس علم الأخلاق (1)>

كما كان الشيخ الطوسي يذهب إلى مجلس السيد المرتضى كتلميذ حتى الثانية والخمسين من عمره, مع أنه كتب بعض مؤلفاته ما بين العشرين والثلاثين, حتى قيل إنه كتب (التهذيب) وهو كتاب مشهور, في السن >(2).
ونقل عن أحد أساتذته - بعدما ذكّر تلاميذه انه <إذا درس أحدكم وتعب, فبالإمكان أن يصبح عالماً, ولكن ينبغي أن تعلموا أنه يوجد فرق كبير بين العالم والمهذب> إنه كان يقول <يقولون من السهل أن تصبح عالماً, ولكن من الصعب أن تصبح إنساناً, ولكن هذا خطأ, ينبغي أن يقال: من الصعب أن تصبح عالماً, ومن المستحيل أن تصبح إنساناً> (3).

(1) الجهاد الأكبر: ص23.

(2) نفس المصدر: ص 21.

(3) نفس المصدر: ص 16.

الشهيد قلب التاريخ

ومن خلال جهود الإمام الخميني في تربية الأمة أخلاقياً؛ فإنه سعى إلى تصحيح المفاهيم التي اكتسبت طابعاً سلبياً عبر الأزمنة التي مرَّ بها المسلمون، وما عانوه من تخلف، وبذلك حولها من مرحلة السلبية إلى مرحلة الإيجاب.

ويمكن أن نلمس ذلك من تحطيم المثل العليا في نظر الإنسان الجديد (الذي بناه الإمام الخميني) وربطه بالمثل الأعلى المطلق. كما يظهر مفهوم <الشهادة> في جوهره الإسلامي متخذاً الصدارة في المفاهيم الإسلامية مغيراً هذا المفهوم الذي اكتسب مفهوماً غير حركي عند الغالبية من المسلمين.

<فليقل كل منكم: أريد أن أكون جندياً مسلحاً، أريد أن أضحي للإسلام، وأعمل له حتى الشهادة> (1).

وقد نجح الإمام الخميني في خلق إنسان الثورة، المتخذ من الشهادة رمزاً لحياته ليكون قلباً للتاريخ، وشاهداً على عصره.

(1) الجهاد الأكبر: ص 80 .

المحتويات

4.....	تلخيص مفردات البحث.....
11.....	الإمام الخميني: سيرة أخلاقية.....
11.....	مراقبة الذات.....
13.....	2_ الصبر على المكاره.....
18.....	الجهاد الأكبر.....
27.....	عالم الدين: المثل الأعلى.....
31.....	نحو تكامل أخلاقي.....
33.....	الركائز الأخلاقية الثلاثة.....
38.....	بين العقيدة والخلاق.....
46.....	تنمية الجوانب الروحية.....
51.....	دروس من سيرة العلماء.....
52.....	الشهيد قلب التاريخ.....
53.....	المحتويات.....